ظاهرة النوادر في اللغة
بحث في الماهية

د. حسن محمد تقي سعيد

محاضر في جامعة السابع من أبريل/الزاوية

من الظواهر اللغوية التي لقيت اهتماما كبيرا من قبل اللغويين العرب ظاهرة النوادر وتتجلى هذه العناية من خلال عدة مظاهر. منها قدم التأليف فيها فقد نقل ابن النديم أن أول من ألف كتابا في النوادر هو أبو عمرو بن العلاء (ت 154هـ).

ومنها كثرة اللغويين الذين ألفوا فيها كتبا كاملة، فما كاد القرن الرابع الهجري ينتهي حتى تجاوزت الكتب المؤلفة فيها الثلاثين، فضلا عما ألّف بعد ذلك التاريخ. لكن من المؤسف أن أغلب هذه الكتب قد فقدت. ولعل أهم ما وصل إلينا منها كتب النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري (ت 215هـ) والنوادر لأبي مسحل الأعرابي(ت 240هـ) وذيل النوادر لأبي علي القالي (ت 356هـ).

هذا فضلا عن اللغويين الذين خصصوا فصولا في كتبهم للنوادر. منهم ابن عبد ربه (ت 308هـ) في العقد الفريد، ومحمد سلامة القضاعي في دستور معالم الحكم ومكارم الشيم.

لكن على الرغم من هذه الكثرة الكاثرة في الكتابة في هذه الظاهرة، فإنها لم تسعفنا في تحديد هذا المصطلح فقد اقتصرت الكتب التي وصلت إلينا على وصف المفردات بأنها من النوادر اللهم إلا بعض المصادر اللغوية العامة التي حاول مؤلفوها تعريف ماهيته. لكن جهدهم هذا لم يفِ الموضوع حقه.

أما الباحثون المحدثون فقد حاولوا أن يسدوا هذا النقص في دراسة القدماء فقد عنوا في بيان ماهية هذه الظاهرة. ولعل أفضل هذه المحاولات هي التي قام بها كل من الدكتور عزة حسن في مقدمة تحقيقه لكتاب النوادر لأبي مسحل الأعرابي والدكتور محمد عبد القادر أحمد في مقدمة تحقيقه لكتاب النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري لكن على الرغم من الجهد المبذول في دراستيهما، فإني أرى أن الموضوع مازال بحاجة إلى مزيد جهد للوصول إلى رأي كاشف عن حقيقة هذه الظاهرة ومبين لماهيتها.

ومن المفيد قبل الخوض في تفاصيل ما يعنيه

اللغويون من مصطلح النوادر أن أتطرق إلى معناها اللغوي.

جاء في كتاب العين للخليل بن أحمد (ت 175هـ) «ندر الشيء إذا سقط، وإنما يقال ذلك لشيء من بين شيء، أو من جوف شيء، وكذلك نوادر الأشياء تَنْدُر»[1].

ولا تكاد تختلف المعاجم اللغوية الأخرى عما جاء في كتاب العين[2].

أما اللغويون القلائل الذين حاولوا تعريف النوادر فإن تعريفاتهم مختلفة. فمنهم من عرف النوادر بالغموض، وآخر بمخالفة القياس. وثالث بالقلة سواء في الاستعمال أم في الوجود باللغة وكما يأتي :

1 ــ الغموض: فقد جاء في أساس البلاغة للزمخشري (ت 528هـ) «وهذا كلام نادر غريب خارج عن المعتاد»[3]. وإذا ما عرفنا أن الزمخشري قد بين معنى الغريب بالغامض. فيكون معنى النوادر عنده ما غمض من الكلام وخرج عن المعتاد.
ولم يوضح ما يعنيه بقوله وخرج عن المعتاد بالضبط، وأغلب الظن أنه يقصد به ما خرج عن الكلام الشائع المستعمل.

ولا شك أن تعريف الزمخشري هذا ينطبق على قسم كبير من الكلمات النادرة لكنه لايشملها كلها لوجود كلمات نادرة غير غامضة المعنى ولاقليلة الاستعمال، أمثال كلمتي (المُنْخُل) و(المُكْحُلة) فقد جعلهما كل من أبي مسحل الأعرابي (ت 240هـ) وابن السكيت (ت 244هـ) والتبريزي من النوادر[4]. يضاف إلى ذلك أن مفردات كثيرة من النوادر لم يحاول اللغويون بيان معناها[5] لوضوحه أو لكون المعنى غير دخيل في جعلها نادرة.

2 ــ مخالفة القياس : عرف ابن منظور النوادر بما «شذ وخرج عن الجمهور»[6] وقد ذهب إلى ذلك أيضا الفيروز آبادي والتهانوي[7].

وينطبق هذا الرأي على عدد من النوادر. منها قولهم مَجَلَتْ تَمْجُل، والقياس الشائع في كلام العرب مَجِلَتْ تَمْجَل[8]. وقولهم (عَطَسَ يَعْطُس) والقياس (عَطِسَ يَعْطِس)[9] وهناك أمثلة أخرى كثيرة[10].

وإذا انطبق هذا التعريف على قسم من الكلمات. فإنه لايشملها كلها. فقد وردت كلمات نادرة جارية وفق القياس. مثال ذلك ما جاء في كتاب النوادر لأبي مسحل «ويقال سمّ ذُعَافٌ، وعُذَافٌ، وذُوَافٌ، وزُوَافٌ، وزُوَامٌ، على مثال فُعَال كله ... سمٌّ قاتل»[11].

فكل هذه الكلمات جاءت وفق القياس ومع ذلك فهي نوادر. ومن ذلك أيضا «يقال ماءَرَتْنِي الأرضُ، على مثال فَاعَلَتْنِي مُمَاءَرَةً مثل وَافَقَتْنِي مُوَافَقَةً، ومِئاراً مثل وِفَاقاً. وكل ما كان من المفاعلة فهو هكذا»[12].

فماءرتني موافقة للقياس وهي نادرة. وهناك أمثلة أخرى جارية وفق القياس[13]. وقد فطن إلى ذلك الشريف الجرجاني[14].

3 ــ القلة في الوجود أو الاستعمال : ذهب ابن هشام (ت 761هـ) إلى أن النادر «أقل من القليل»[15] ولم يوضح ما يقصده من القلة. هل هي في الاستعمال أو في الوجود ؟ أي هل أن النوادر التي يقل استعمالها أو التي يقل وجود أمثالها في اللغة ؟. وعلى الرغم من أن المعنيين يلتقيان في مفردات عديدة ــ فغالبية المفردات التي يقل استعمالها تكون قليلة الوجود، وكذا العكس ــ فإنه توجد كلمات قليلة المثيل في اللغة، وهي شائعة إلى حد ما في الاستعمال. ولعل أوضح مثل على ذلك، ما نجده في بعض كلمات الأضداد. فالأضداد كما نعلم قليلة الوجود في اللغة[16]. أي أن عدد كلمات الأضداد قليلة جدا

بالقياس إلى كلمات الظواهر اللغوية الأخرى. فضلا عن الكلمات الباقية في اللغة. ومع ذلك فإن بعض هذه الكلمات مستعمل، وبخاصة عند من درس اللغة، أمثال كلمة مولى: للعبد والسيد. والظن: للشك واليقين.

وقد ذهب الدكتور عزة حسن[17] والدكتور محمد عبد القادر أحمد[18] والدكتورة خولة الهلالي[19] إلى أن الأساس في الكلمات النادرة قلة الاستعمال. واستدلوا على صحة ما ذهبوا إليه بأمثلة من النوادر. وأنا أضيف أن هناك أمثلة أخرى تجري وفق ما ذكروه، لكن هناك أمثلة غيرها تخالف ذلك.

فقد جاء في إصلاح المنطق «وما كان على مِفْعَل ومِفْعلة فيما يعتمل فهو مكسور الميم نحو مِخرز ... إلا أحرفا جاءت نوادر بضم الميم وهي مُسْعُط وكان القياس مِسْعَط، ومُنْخُل، ومُدُقّ ومُكْحُلَة»[20] وليس من المعقول أن تكون كلمتا المنخل والمكحلة قليلتي الاستعمال، لأنهما تدلان على آلات تستعمل يوميا في البيت سابقا وقد تستعمل حاليا أيضا.

ذهب الجرجاني والتهانوي إلى تعريف النوادر بما قل وجوده في اللغة[21]. وهما بذلك مصيبان إلى حد ما، ويؤيد رأيهما بعض الأمثلة من ذلك «يقال همٌّ دُخَّلي، وحَجَرٌ صُلَّبي، وإبلٌ سُمَّهى على فُعَّلَى لم يجيء في الكلام غيرها»[22]

ومن ذلك أيضا ما نقله ابن السكيت عن الكسائي قوله لا يأتي من المذكر (مَفْعُل) بضم العين إلا حرفان نادران هما مَكْرُم جمع مَكرمة ومَعْون جمع مَعونة[23].

ونقل ابن قتيبة عن الفراء أنه سمع كلمتين فقط جاءت في اللغة العربية على وزن (مَفْعِل) هما مَأْقِي العين، ومَأْوِي الابل[24].

وهذه الأمثلة صريحة بأن الكلمات النادرة يوجد أمثالها قليل في اللغة. لكن المشكلة مازالت قائمة، مادامت قلة وجود الكلمات في اللغة ليست مقتصرة على النوادر. إذ تشمل الأضداد كما ذكرنا.لذا لابد من إضافة قيد آخر إلى التعريف، يخرج به مثل الظاهرة المذكورة، وهو مايتعلق بتركيب بنية الكلمة. فتكون النوادر هي الكلمة التي يقل وجود مثيلها في اللغة لتركيب خاص في بنيتها. سواء خالفت القياس وهو الأكثر، أم جاءت وفقه، وسواء قل استعمالها في اللغة، وهو الغالب أم لا. وسواء كانت تحمل دلالة غامضة أم واضحة.

فلا شك أن الكلمات النادرة التي تحمل دلالات غامضة تكون قليلة الوجود بالنسبة إلى عموم كلمات اللغة وكذا الكلمات النادرة المخالفة للقياس ومثلها المفردات التي هي قليلة.

الهوامش

(1) العين (ندر) 21/8

(2) انظر مادة (ندر) في تهذيب اللغة 65/14 والصحاح 825/2 وأساس البلاغة 431/2 ولسان العرب 52/7 والقاموس المحيط 145/2

(3) أساس البلاغة (ندر) 431/2

(4) انظر النوادر لأبي مسحل 87/1 طبعة دمشق سنة 1961 أو إصلاح المنطق 218/1 طبعة القاهرة سنة 1956 وتهذيب إصلاح المنطق 506، طبعة بيروت سنة 1983م

(5) انظر النوادر في اللغة 306 و313 و314 والنوادر لأبي مسحل 45/1 و87 وإصلاح المنطق 218/1 و220 وأدب الكاتب 617 و618 طبعة ليدن سنة 1900م وغيرها.

(6) لسان العرب (ندر) 53/7.

(7) انظر القاموس (ندر) 145/2 وكشاف اصطلاحات الفنون 510/2 طبعة الهند سنة 1862م.

(8) انظر النوادر في اللغة لأبي زيد 473.

(9) المزهر للسيوطي 215/1 طبعة القاهرة سنة 1958م.

(10) انظر إصلاح المنطق 218/1 و220 و222 وأدب الكاتب 617 و618 وتهذيب إصلاح المنطق 506 و507 والمزهر للسيوطي 238/1 وغيرها.

(11) النوادر34/1.

(12) النوادر لأبي مسحل 124/1.

(13) انظر إصلاح المنطق 221/1 وتهذيب إصلاح المنطق 512.

(14) انظر التعريفات للجرجاني 125 طبعة تونس سنة 1971م.

(15) المزهر للسيوطي 234/1.

(16) انظر الأضداد لقطرب 244 طبعة ألمانيا سنة 1931م والأضداد لابن الأنباري ؛ طبعة الكويت سنة1960م.

(17) انظر مقدمة النوادر لأبي مسحل الأعرابي 21/1.

(18) انظر مقدمة النوادر في اللغة لأبي زيد الأنصاري 54.

(19) انظر دراسة لغوية في أراجيز رؤية 86 طبعة بغداد سنة 1982م.

(20) إصلاح المنطق 218/1وانظر النوادر لأبي مسحل 87/1 وتهذيب إصلاح المنطق 506.

(21) انظر التعريفات 125 وكشاف اصطلاحات الفنون 741/1.

(22) النوادر لأبي مسحل 45/1.

(23) انظر إصلاح المنطق 222/1 ــ 223.

(24) انظر أدب الكاتب لابن قتيبة 618.